أصول التفكير الاصطلاحي الصوتي عند الفلاسفة المسلمين ومصادره ـ بحث في خلفية الإبداع والاتّباع ـ

د. نصيرة شيادي
جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان ـ الجزائر

تاريخ الإرسال: 2018-06-07 تاريخ القبول: 2018-09-30 تاريخ النشر: 2019-05-15

الملخص:

إنّ معرفة الفلاسفة الموسوعيّة ومُشاركتهم في أكثر من علم جعلت المعلومات الصّوتية متفرّقة، كما أنّ عصر التخصّص حجبَ عنّا علمهم الصّوتي وجزّأ الحكم عليه وهذا البحث يجتهد في الكشف عن مسألة تعتبر الآن من أهمّ مسائل تأصيل تراثنا الفلسفي العربي وبوجه خاص دور الفلاسفة المسلمين في علم المصطلح الصوتي وإعمامه ونشره جادّة في الإجابة عن الأسئلة التالية :

ـ هل استطاع الفلاسفة المسلمون إبداع مصطلحات صوتيّة خاصّة بهم ؟

ـ ما هي المنهجيّة التي استحوذت على تفكيرهم الصّوتي ؟

ـ هل مصطلحاتهم الصوتية امتداد لمصطلحات النحاة واللغويين العرب والأعاجم ؟ أم أنّ مصطلحاتهم الصّوتية لها سمات معيّنة تُميّزها عن غيرها ؟

تلك جملة الإشكاليات سأحرص على الإجابة عنها مستعينة بالمنهج الوصفي المناسب لطبيعة البحث .

الكلمات المفتاحية : المصطلح، الصوت، الفلاسفة المسلمون، الإبداع، الاتّباع .

Abstract :

The knowledge of the encyclopedic philosophers and their participation in more than one science has made the audio information sparse, and the age of specialization has obscured our knowledge of the voice and part of the judgment and this research strives to uncover the issue is now one of the most important issues of the rooting of our Arab philosophical heritage and in particular the role of Muslim philosophers In the science of audio terminology and its dissemination and publication is serious in answering the following questions Can Muslim philosophers create their own idioms? What is the methodology that captured their voice thinking ? Are their phonetic terms an extension of the terminology of grammarians, linguists, and linguists? Or do their vocal terms have certain characteristics that distinguish them from others?

These are all the problems I will be careful to answer using the descriptive approach appropriate to the nature of research .

Keywords : Term, Sound, Muslim philosophers, Creativity, Followers .

تمهيد :

إنّ الحديث عن المصطلح في أيّ علم من العلوم هو ضرورة ملحّة دعت إليها الاحتياجات العلمية المتخصّصة، والمصطلح من حيث وُجوده يُعدُّ نِتاجَ العلم وخُلاصة حقائقه، ومَعْلَمَ تمايُزِهِ عن غيره وتخصّصهِ بذاتهِ ؛ ولذا فإنّ مفاتيح العلوم هي مصطلحاتها ومصطلحات العلوم ثمارها القصوى فهي مجمع حقائقها المعرفية وعنوان ما به يتميّز كلّ واحد منها عمّا سواه .[1]

وليس من مسلكٍ يتوسّل به الإنسانُ إلى منطق العلم غير ألفاظه الاصطلاحية فإذا استبانَ خطرُ المصطلح في كلّ فنٍّ توضّحَ أنّ السجلّ الاصطلاحي هو الكشف المفهومي الذي يُقيمُ للعلمِ سورهُ الجامعَ وحِصنهُ المانعَ فهو له كالسّياجِ العقلي الذي يُرسي حرماته رادِعًا إيّاه أن يُلابسَ غيره وحاظرا غيره أن يلتبس به فالوزن المعرفي في كل علم رهين مصطلاحته .[2]

وخُطورة المصطلحات عموما والعلمية منها على وجه الخصوص تكمُنُ في أهميتها البالغة في ربط ثقافة الماضي بالحاضر وفي تلاحم الشعوب ذات اللسان الواحد، وإنّ أيّ فهمٍ خاطئ لمصطلح ما ربّما يُوقعُ في طامّاتٍ كانت تحتاج إلى قليل من التثبّت والتروّي تماما كما فعل بعضُ دارسي الأصوات من المعاصرين مع مصطلح (الهمس) المتوارث في تُراثنا . حيث أعطَوهُ المفهوم الغربي

للصوت غير المجهوروالذي يُطلق على كلّ ما لا تهتزّ الأوتار الصّوتية معه (Unvoiced)هذا المفهوم ونتيجة لتطبيقه على مفهوم الهمس عند المتقدّمين من أئمّة العربية والتجويد أوصلتْ بعضهم إلى تقريرِ أنَّ القرآن الكريم قد أصاب بعض أصواته التطور والتغيّر، وأنّ ما وصفه المتقدّمون بالأمس عن الحروف العربية قد تغيّر نطقه من خلال ما نسمعُه من أفواه القرّاء المجيدين وهو قول لو تمعّنَ أصحابُه فيه لعلموا أنّ فيه اجتراء كبيرا على الوعد الإلهي المطلق القاضي بحفظ الكتاب المنزّل دون تقييد لهذا الحفظ بنصّ مكتوب أو صوت منطوق، ومنشأ هذا الوهم يرجعُ في أساسهِ إلى تحريفٍ كبيرٍ لدلالة الهمس ومن هنا تكمنُ أهمّية معرفة دلالة المصطلحات وفهمها على وجهها الصحيح، الذي أراده لها واضعُوها .[3]

ولذلك أقبل اللغويون العرب القدماءوالفلاسفةالمسلمون على دراسة المصطلحات وبيان خصائصها إحساسا منهم أنّه لا يُمكنُ أن يُتحدّث عن العلم بغير جهازه المصطلحي وقد شعرت هذه الأخيرة ـ فئة الفلاسفة المسلمين ـ أنّ كثيرا من الاختلافات المذهبية منشؤها خلط في استعمال الحدود وغموض في الألفاظ والمصطلحات ممّا يُؤدّي إلى سوء تفاهم بين المفكرين اللذين تخصّصُوا في علم علم وفي صناعة صناعة يقول الفارابي* (ت 339 هـ/ 951 م) " والمعارف المشتركة التي هي بادئ رأي الجميع هي أسبق في الزمان من الصّنائع العملية، ومن المعارف التي تخصّ صناعة صناعة [4]".

إنّ للعرب قدم راسخة وجهود فائقة في منظومة البحث اللغوي بكاملها لذلك لم يكن شاذّا ولا غريبا أن يورثنا هؤلاء الأئمة تراثا لغويا ضخما يحملُ تفكيرا لغويا ناضجا " لم يزل بعض جوانبه تُضارع بل تفوق ما يُقابلها من وجوه النظر في الدرس اللغوي الحديث . " [5]

ومن هذا التراث العلمي الزاخر نلمسُ قيمة ما طلع علينا به هؤلاء القوم من مصطلحات صوتية ناضجة هي اليوم محلّ إعجاب وتقدير أئمة اللغة في الغرب يقول إبراهيم أنيس : " لقد كان للقدماء من علماء العربية بحوث في الأصوات اللغوية، شهد المحدثون أنها جليلة القدر بالنسبة إلى عصورهم وقد أرادوا بها خدمة اللغة العربية والنطق العربي ولا سيما في الترتيل القرآني . ولقُرب هؤلاء

العلماء من عصور النهضة العربية، واتّصالهم بفصحاء العرب كانوا مرهفي الحس، دقيقي الملاحظة فوصفوا لنا الصوت العربي وصفا أثار دهشة المستشرقين وإعجابهم " [6]

ولكنّ المصطلح الصّوتي في المباحث الصّوتية للفلاسفة المسلمين ظلّ شبه منسي لأنّ الأذهان والأنامل كانت تتّجه إلى النحاة واللغويين في كل مرة يذكر فيها المصطلح الصوتي لذلك لا ضير من تنظير تاريخي للمصطلح الصوتي لنستكشف أصول التفكير الاصطلاحي عند هذه الأخيرة ـ الفلاسفة المسلمين ـ وكذا الوقوف على جهودهم ودورهم في صياغة المصطلح الصوتي .

أوّلا : تنظير تاريخي للمصطلح الصّوتي

كي ينشأ درس من الدروس لا بدّ أن تتوفر له دواعٍ معيّنة ولا بدّ أن تكون هذه الدّعاوي متّصلة بالظّروف العامة لهذه النشأة ونعني بالظّروف العامّة البيئة الثقافية والاجتماعية والجغرافية وغيرها، ممّا يهيئ لقيام هذا الدرس أو ذاك فإذا وُجد هذا الجو الممهّدَ لولادة الدراسة الجديدة، وظهرت فيه الدوافع الخاصّة إلى هذه الدراسة تمّت عملية الولادة على أيدي المعنيين بهذا الجانب من المعرفة ومن الطّبيعي أن تكون تلك الدراسة في بداية أمرها قليلة المادة بعيدة عن العمق ثم تأخذ بالنمو شيئا فشيئا حتى تستوي عِلْمًا مُتكاملا مستقلا له أصول وفروع [7] و هذا ينطبق إلى حدّ ما على الدرس الصوتي ومصطلحاته عند العرب فقد توفرت له دوافع انبثقت من طبيعة الظروف التي مرّ بها المجتمع العربي الإسلامي منذ القرن الأول حيث يُعتبرُ اللحن أهمَّ الدوافع التي شدّت انتباه العلماء وأجبرتهم على التفكير فيما من شأنه أن يصون السليقة العربية وقد كان ظهوره مرتبطا بالانقلاب الذي أحدثه الإسلام في كيان المجتمع العربي وما نتج عن ذلك من اختلاط الأمم .[8] فلقد كانت العرب قديما تتكلّم على سجيّتها يقول الخليل (ت 175 ه) : " إنّ العرب نطقت على سجيّتها وطباعها وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله، وإنْ لم يُنقَل ذلك عنها ." [9] لكن لما كانت الفتوحات الإسلامـــية والحروب واختلطت العرب بالشعوب الأخرى تسرّب الفساد واللحن * إلى لغة كثير من العرب وفي هذا الصدد يقول ابن الأثير(ت637ه) " كان اللسان العربي صحيحا محروسا لا يتداخله الخلل ولا يتطرّق إليه الزلل إلى أن فُتحت الأمصار، وخالط العربُ غير جنسهم، فاختلطت الفرق وامتزجت الألسن . " [10]

واستمرّ استفحال اللحن إلى أن وصل إلى قراءة القرآن الكريم فاتّجه العلماء إلى التأليف في ترتيل القرآن فوقفوا وقفات محمودة عند الأصوات وأحكامها ونُطقها في التلاوة واختلاف القراءات يقول الشيخ ابن حامي* (ت 1318ه) " إنّ العلماء ما ألّفوا تآليفهم وسهروا ليلهم واشتغلوا نهارهم بالتأليف في علم التجويد، وإتقان مخارج الحروف وصفاتها، واعتنائهم بذلك غاية الاعتناء إلاّ خوفا ممّا وقع له، وحذرا من استحكام الطّبائع وتغييرها للحروف عن مخالطة العجم للعرب . فكيف لمن نشأ هو وأوائله ومن تقدّمه بأرض العجم التي لم يدخلها الإسلام ولا القرآن إلاّ بعد قرون كـثيرة غاية ولم تدخلها العربية إلاّ متغيّرة " [11] لذلك هبّ أولوا الغيرة على العربية والإسلام إلى محاربة اللحن بوضع النحو واستنباط قواعده.[12]

وتواصلت جهود العلماء القدامى في دراسة اللغة من جانبها الصّوتي فظهرت العديد من المصطلحات الصّوتية إلاّ أنّ دراستهم لم تكن مستقلّة وإنّما ضمّنوها غيرها من البحوث فبالنسبة لأصحاب المعاجم وفي مقدّمتهم الخليل بن أحمد الفراهيدي أدرك أهمية الدرس الصوتي بالنسبة إلى علوم اللغة المختلفة وبخاصّة في المعاجم، فقال : " بدأنا في مؤلّفنا هذا بالعين وهو أقصى الحروف، ونضمّ إليه ما بعده حتى نستوعب كلام العرب الواضح والغريب . "[13] كما ربط الخليل اللغة بالصوت باعتبار أنّ الصوت هو امتداد للبنية التركيبية وأصل الأفكار المنطوقة في اللغة وهذا ما توصّل إليه بعد قرون (F.De.Saussure)دي سوسير حينما رأى أنّ اللغة فكرة منظمة مقرونة بالصوت من خلال تأمل عنصرين يشتركان في تأدية اللغة لوظيفتها وهما : الأفكار والأصوات من خلال الربط بينهما . يقول (F.De.Saussure) دي سوسير " إنّ الدور المميّز للغة بالنسبة للفكر ليس وسيلة صوتية مادية للتعبير عن الأفكار، بل القيام بوظيفة حلقة الوصل بين الفكر والصوت في ظروف تؤدي بالضرورة إلى التميز المتبادل لوحدات الفكر والصوت ."[14]

إنّ هذا المنحنى من التخطيط الصوتي هو الذي يرمي إليه الخليل في مقدمة العين ليخلص إلى صلة التفاعل الحقيقي بين الأفكار والأصوات من هنا يرى مهدي المخزومي أنّ الخليل لم يتناول اللغة بالدرس من قِمَّةِ الهرمِ كما فعلَ من سبقه، وكما فعل من عاصره، ولكنّه تناولها من القاعدة

فبدأ الدرس اللغوي من الصوت الذي تتألف منه مفردات اللغةواستطاع بذلك أن يفسّر ظواهر لغوية لم تكن لتُفهم بدون فهم سابق لطبيعة الحروف وتفاعلها .[15]

وتنبّه النحاة أيضا لأهمية الدرس الصوتي والأصوات في تفسير بعض الظواهر الصرفية ففي الكتّاب تحدّث سيبويه (ت 180ه) عن الأصوات ومخارجها قبل الحديث عن الإدغام لتفسير هذه الظاهرة بناء على المعطيات الأوّليّة المتعلقة بطبيعة الأصوات فأغنى الدرس الصوتي بمصطلحات جديدة نسمعه يقول : " وإنّما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرفَ ما يحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه، وما تُبدله استثقالا كما تُدغم وما تخفيه وهو بزنة المتحرك" [16]و قد سار عدد من اللغويين على نهجه .[17]

واهتمّ المؤلفون في إعجاز القرآن وعلوم البلاغة بكلّ ما يتعلق بتنافر الأصوات وتآلفها واهتمّ أصحاب الموسوعات الأدبية وعلى رأسهم الجاحظ (ت 255 ه) بعلم الأصوات حين تعرّض لعيوب النطق وأمراض الكلام .[18]

نخلصُ مما سبق إلى أنّ الدرس الصوتي ومصطلحاته كان مُتداولا بين اللغويين والقراء يتوارثه بعضهم عن بعض مُشافهة وسماعا ولم يُعرف مصطلح علم الصوت إلاّ عند مجيء ابن جـــني (392ه) الذي وضّح مضمونه في حديثه عن علاقته بفنّ الموسيقا فقال : " وإنّما أردنا بهذا التمثيل الإصابة والتقريب، وإن لم يكن هذا الفن ممّا لنا (فن الموسيقا) ولا لهذا الكتّاب به تعلّق، ولكن هذا القبيل من هذا العلم، أعني علم الأصوات والحروف له تعلّق ومشاركة للموسيقا لما فيه من صنعة الأصوات والنغم ." [19]و هذا لا يعني أنّ موضوعات هذا العلم كانت تسير دون هوية، بل لقد كان لكل ظاهرة من ظواهره مصطلح يخصّها نحو: مخارج الحروف، والإمالة، والمد والإدغام وغيرها .[20]

ويرجعُ عدمُ استقلال علم الأصوات بموضوعاته عن بقية علوم اللغة الأخرى إلى أنّ هذا العلم لم يُدرس لذاته [21] ولهذا لم تُؤلّف كتبٌ خاصّةٌ به باستثناء سر صناعة الإعراب الذي يكادُ يكون خالصا لعلم الأصوات .

ثانيا : جهودالفلاسفةالمسلمين ودورهم في صياغة المصطلح الصّوتي

لقد بدأت إرهاصات المدرسة العقليةالفلسفية منذ عهد أبي جعفر المنصور حين أمر بترجمة علوم الأمم الأخرى إلى العربية كالطب والرياضيات والهندسة والفلسفة والموسيقا وغير ذلك من علوم الأمم الأخرى التي كانت ليست للعرب .[22] ولقد كان من نصيب حضارتنا العربيـة في مرحلة تفتّحها وفي عصر التنوير الفكري أن حققت أيضا ما حققته أممٌ من قبلها فعملَ رجالها ومُفكروها على صياغة المصطلح العلمي بما تيسّر لهم يومذاك من أدوات اللغة ومفرداها مقرونة بطبيعة التطلّع إلى البناء الجديد لمفاهيم في العلم كان الناس فيما ثقفوه من معارف الغرب والشرق الوافدة عليهم مترجمة أو معرّبة في مسيس الحاجة إلى صياغتها وتحديد مضامينها وأشكالها .[23]

ولقد كان للعربية موقفها الصريح والدقيق نحو هذا الجديد فبقدر ما توسّعت في الاشتقاق والمجاز ـ كما تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن ـ " ضيّقت باب الأخذ من الدخيل صونًا للسانها فاستغنت إلى أقصى مدى بتطويع الألفاظ الفصحى لكي تؤدي المعاني الجديدة على وجه التجوز، ولم تلجأ إلى استعارة الدخيل إلاّ عند الضرورة القصوى مع إخضاعه للصيغ العربية إمّا بالإلحاق أو بتغيير نطقه إشعارا بتعريبه وقد استطاع علماء اللغة في عصر التدوين أن يستخلصوا قواعد لمعرفة المعرّب تشهد بأنّ الأمر لم يُترك لفوضى عشوائية بل خضع لقواعد كانت العربية تجري عليها فيما تأخذه من اللغات الأخرى" [24] وهذا تماما ما ذهب إليه الفلاسفة المسلمون في تعاملهم مع ثقافة الآخر .

1 ـ الترجمة وأثرها في التفكير الاصطلاحي

لقد أوجد الإسلام مناخا علميّا خصبا " فظهوره كان دفعة قويّة للتّفكير العلمي لكي يفتح وينتشر ويزيد من معارف الإنسان ورفاهيته "[25] لذا كان عليه في انتشاره الواسع والسّريع الاحتكاك بثقافات شعوب المناطق ذات التّراث الزّاخر" فمن المعلوم أنّ الإسلام لم ينتشر في فراغ فالأمم التي اعتنقته أمم عريقة عرفت حضارات شتّى وثقافات متنوعة لذلك فقد اتّصل الإسلام بهذه الأمم جميعا واتّصلت به . وأخذ منها وأعطاها فعرف حضارة الهند وحكمة إيران وفلسفة اليونان وشريعة الرومان ورهبنة النّصرانية ومذاهب التّصوّف واختلط بأقوام تنوّعت عقائدهم،

وتباينت مذاهبـهم وتعدّدت أجناسهم وتشعّبت آدابهم، ونتج عن ذلك كلّه مزاج فكري واجتماعي واقتصادي وروحي جديد أعطى الحضارة الإسلامية معناها ومبناها ."[26]

ومع ما في التّرجمة من صعوبات ـ حيث يقول ابن تيمية (ت 728ه) " وإن كان كثير من الترجمة لا يأتي بحقيقة المعنى التي في تلك اللغة بل بما يُقاربه، لأنّ تلك المعاني لا تكون لها في اللغة الأخرى ألفاظ تُطابقها على الحقيقة لا سيما في لغة العرب فإنّ ترجمتها في الغالب تقريب ."[27] إلاّ أنّ الفلاسفة العرب استطاعوا أن يَخرُجـوا لنا بالأمور الكثيرة من تلك النصوص المترجمة، فزادوا عليها ونقّحوها حيث أنّ " الثّقافات الأجنبيّة كانت معينا لا ينضب، استقى منه الفكر الإسلامي أهمّ مقوّماته . فاتّسعت آفاقه، وتطوّرت إبداعاته، وتعدّدت مناهجه وحقّق في فترة وجيزة جدّا من الزّمـن نهضة شاملة ." [28]

لكن هذا أوقع فلاسفتنا موقعا ثانويّا عند بعض المحدثين الذين ذهبوا إلى أنّ فكر ابن سينا مثلا هو تماما ما جاء به أرسطو وكذلك الفارابي وغيرهما من الفلاسفة المسلمين [29] إلاّ أنّ من يُمعن النّظر فيما تركه هؤلاء من موروثات يُدرك دقّة الدراسات عندهم لأسباب أهمّها

أ ـ الترجمة التي وصلت إليهم تميّزت بعدم الدّقّة وذلك يعود إلى أنّ معظم ما نقل إلى العربية من التراث اليوناني لم ينقل مباشرة بل مرّ أوّلا بالترجمة إلى السّريانية قبل نقله ثانية إلى العربيّة فقد نصّ أبو حيان التوحيدي (400ه) " على أنّ الترجمة من لفة اليونان إلى العبرانية، ومن العبرانية إلى السريانية، ومن السريانية إلى العربية . قد أخلّت بخواص المعاني في أبدان الحقائق إخلالا لا يخفى على أحد ولو كانت معاني اليونان تهجس في نفس العرب مع بيانها الرائع، وتصرّفها الواسع وافتنانها المعجز، وسعتها المشهورة . لكانت الحكمة تصل إلينا صافيةً بلا شوب، وكاملة بلا نقصٍ. ولو كنّا نفقهُ من الأوائل أغراضهم بلغتهم، لكان ذلك أيضا ناقعا للغليل، وناهجا للسبيل مبلّغا إلى الحدّ المطلوب . "[30]

أضف إلى ذلك الغموض الذي تتّصف به كتب " أرسطو" بشكل خاص هذا وغيره ممّا زاد لغة الترجمة ركاكة وتعقيدا إلى حدّ جعل ابن سينا يعترفُ بأنّه قرأ كتـاب (ما بعد الطبيعة لأرسطو)

أربعين مرة ولم يفهم شيئا من معانيه [31] كما لم يفهم ابن سينا ولا ابن رشد من حقيقة كتاب (فن الشعر لأرسطو) شيئا .[32]

ونحن إن قلنا هذا فهذا لا يعني أنّ ابن سينا وغيره من الفلاسفة أمثال الكندي والفارابي وغيرهم كثير لم يتأثّروا بالفكر اليوناني بل بالعكس، فمثلا ابن سينا جاءت مؤلفاته ممزوجة بهذا الفكر ولكنه تحرّر منه ومن تأثير أرسطو عليه في مؤلفاته التي تمثلت في : " الإشارات والتنبيهات" ومؤلفه الذي اختصر فيه كتابه الشفاء وهو" النّجاة "حيث استعمل فيه المصطلحات التي تتماشى واللغة العربية ،[33]يقول :"حسبنا ما كتب من شروح لمذاهب القدماء، فقد آن لنا أن ننشئَ فلسفةً خاصّةً بنا يريد بذلك أن يُصوّر النّظريات القديمة بصورة جديدة ." [34]

والنص هذا يبيّن منهج ابن سينا في كتاباته حيث أنّه كان ماهرا في جمع المادة وله القدرة اللّغويّة على توليد مصطلحات خاصّة به ونفس الشّيء يُقال على الكندي الذي عاش في أوائل عصر الترجمة فهو أوّل من حذا حذو أرسطو في تفكيره ونهجه، ولكن هذا لم يمنعه من أن يظهر إبداعه واستقلال شخصيته، في اختيار ما اختار من أرسطو ورفض ما رفض، لقد أخذ بمقدار وترك بمقدار.[35]

ب ـ إنّ الفكر اليوناني لم يسلم من أخطاء وعيوب النقل إلى اللغة العربية ممّا جعل نتائجه تظهرُ متأخرة " كيف لا ؟ والكتب اليونانية الأصلية لم تصل إليهم في نصّها وإنّما وصلت إليهم شروحا وحواشي وتعليقات تتفاوت في قدرتها على فهم النص واستيعابه " [36]

ج ـ كثير من النقلة كانوا من غير الفينيقيين المتخصّصين إذ كان معظمهم من أطباء مدرسة جنديسابور* " فكان إذا أُشكلَ على الناقل فهم نصٍّ من النّصوص، عمد إلى حذف ما يشكل عليه أو استعاض عنه بقول فيلسوف آخر، أو حاك الثّغرة بين سابق النص ولاحقه من نسج خياله الخاص مُتأثّرا في ذلك بمزاجه الشّخصي وبثقافته العقليّة واتّجاهه الروحي والمذهبي ." [37]

وانطلاقا من هذه الأسباب يمكننا أن نتصور مبلغ العناءِ والعنتِ الذي لاقاه فلاسفتنا عندما أقدموا على الاشتغال بالكتب المترجمة " فإلى جانب أنّهم كانوا على غير صلة بالموضوع المنقول إلى

لغتهم كان الأسلوب الذي نقل به إليهم غامضا مبهما عصيّا على الفهم فكان أحدهم إزاء هذه الحال إمّا أن يتّهم ذاته، أو أن يتّهم الفلسفة بما لا يُحمد ." [38]

ورغم هذه الصّعوبات التي واجهت الفلاسفة في الترجمة إلاّ أنّهم لم يقفوا عند هذا الحد بدليل "إعادة ترجمة الكتاب الواحد مرّات متعدّدة عن مصادر مختلفة، ومقابلة التّرجمات بعضها ببعض وكانت هذه الطّريقة من الأساليب المتّبعة بين العلماء للوصول إلى النصّ الأصلي الصّحيح . [39]"

وهذا يدل على قدرة الفلاسفة على تطويع اللغة العربية تماشيا مع مقتضيات العلوم الدّخيلة فوضعوا اسما لكل مخترَع، واصطلاحا لكل فكرة، وأعادوا بناء عالمهم الفكري بآفاقه العمليّة طبقا لذهنيتهم المتجدّدة بين الأصيل والوافد .[40]

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ العرب تأثّروا أيّما تأثّر بالترجمة السريانية للنّصوص اليونانيّة فكانوا يلفظون الكلمات كما هي في اللغة السريانية لا كما هي في اللغة اليونانية إذ يقولون مثلا : سقراط وأفلاطون وإقليم وفندق لا سقراطيس وبلاطون وقليما وبندوخيون . كما يقول اليونان وممّا يلفت النّظر هنا أيضا، أنّ العرب سمّوا اليونان لا بالاسم اليوناني [هيلين] بل بالاسم السرياني [يونان].[41]

هذا يدفعنا إلى القول إنّ المصطلحات التي أوجدتها ترجمة العلم إلى العربية دخلت اللغة العربية واندرجت مع ألفاظها، واشتملت عليها معجماتها القديمة وكانت صالحة للتّعبير عن علوم القدماء [42] وفي المقابل الفلاسفة فهموا الفكر اليوناني فهما تامّا إذ اعتمد هذا الأخير على المنطق الذي هو آلة الفكر ممّا جعل للفلاسفة تفكيرهم الخاص ومصطلحاتهم الخاصّة بهم حيث ترى" غواشون " أنّ معجمية ابن سينا أوسع في مؤدّاها من نظائرها عند أرسطو طاليس وفي هذا المجال تقول : "و قد سمح غنى النصوص الفعلية للغة العربية في هذا النحو بقيام تحديدات كثيرة للمعجمية اليونانية . ولا شكّ أنني كوّنت هذه الفكرة بعد أن درستُ معجمية أرسطو ومن المؤكد أنّ الشرّاح والفلاسفة المتأخرين عنه قد أفاضوازيادات عرفها المترجمون العرب أي استعملوها وعلى هذا فإنّ من المدهش حقّا أن نجد عندما ننظم سلسلة الكلمات الفنية لأرسطو وابن سينا أنّ

ثلث التحديدات السينوية مفقودة عند أرسطو ." [43] و هذه المقولة تحتّم علينا البحث في مصادر المصطلحات الصّوتية .

2 ـ مصادر المصطلحات الصوتية عند الفلاسفة المسلمين

على الرغم من تأخّر الحقبة الزمنية التي يقعُ فيها الفلاسفة المسلمون إذا ما قيسُوا بغيرهم من دارسي المصطلحات الصّوتية إلاّ أنّه لا يُمكنُ لأحدٍ من الدارسين أن يُنكرَ التطور الصوتي الذي أحدثته المدرسة الفلسفية في دراسة الأصوات والمصطلحات الصّوتية . فلقد أحسّ الفلاسفة بالقيمة المعنوية لأصوات اللغة وبنية ألفاظها ، وخصائص المواد الصّوتية المشكلة لها ذلك ما يُشير إليه ابن رشد في قوله : " وإنّما صارت الألفاظ والأصوات تفعلُ في هاتين الصّناعتين (الخطابة والشعر) هذا الفعل من جهة أنّها تخيّل في المعنى رفعة أو خسّة . وبالجملة أمرا زائدا على مفهوم اللفظ مثل غرابة اللفظ فإنها تخيّل غرابة المعنى والنغم كذلك يفيدُ فيه هذا المعنى أيضا ." [44]

هذا الإحساس والاتّفاق على القيمة المعنوية للأصوات من لدُن الفلاسفة المسلمين لا يعني بالضرورة الاتّفاق حول الأسباب والدوافع التي جعلتهم يخوضون غمار البحث الصّوتي فالدراسة الصّوتية لم تكن مسعاهم ولا هدفهم منذ البداية فقد أوضح أبو بكر الشهرستاني (ت 548 ه) سبب عناية الفلاسفة باللفظ والكلام في قوله : " لما كانت المخاطبات النظرية بألفاظ مسموعة والأفكار العقلية بأقوال عقلية . فتلك المعاني التي في الذهن من حيث يتأدّى بها إلى غيرها، كانت موضوعات المنطق ومعرفة أحوال تلك المعاني مسائل علم المنطق وكان المنطق بالنسبة إلى المعقولات على مثال النحو بالنسبة إلى علم الكلام والعروض والشعر فوجبَ على المنطقي أن يتكلّم في الألفاظ من حيث تدلّ على المعاني . " [45]

فالغاية التي من أجلها قام الكندي بدراسة أصوات العربية في رسالته (اللثغة) هو الحديث عن عُيوب النطق، واهتمّ الفارابي في كتابه (الموسيقى الكبير) بدراسة الأصوات بُغية التقديم لدراسة الموسيقى يقول في بيان الدافع إلى دراسته الصوتية : " ولما كان طريق التحليل يُستعمل فيه تقديم الأقدمِ فالأقدم في الوجود . وكان أقدم ما تشتمل عليه هذه الصناعة في الوجود هي المبادئ المأخوذة من العلم الطبيعي، ثم بعض المبادئ الهندسية ، ثم العددية إذا كانت العددية لا يمكن

استعمالها دون أن يتقدم قبله المبدأ الهندسي والهندسي لا يمكن استعماله أو يتقدمه العلم الطبيعي لزم أنّ الذي نفتتحَ به كتابنا هذا هو المبدأ الطبيعي . " [46]

أمّا دافعُ ابن سينا للتّأليف في الأصوات فيُروى أنّ الشيخ كان جالسا يومًا بين يدي الأمير وأبو منصور الجبائي حاضرٌ* فجرى في اللغة مسألة تكلّم الشيخ فيها بما حضره فالتفت الجبائي إلى الشيخ يقول : " إنّك فيلسوف وحكيم، ولكنّك لم تقرأ من اللغة ما يُرضي كلامك فيها ." فاستنكف الشيخ من هذا الكلام، وتوفر على درس كتب اللغة ثلاث سنين، واستهدى كتاب (تهذيب اللغة) من خراسان من تصنيف أبي منصور الأزهري (ت 370ه) فبلغ الشيخ في اللغة طبقة قلّما يتّفق مثلها . [47]

وبالتالي فالدراسة الصوتية التي عُرفت عند الفلاسفة المسلمين لم تكن مقصودة في ذاتها وإنما كانت سبيلا للوصول إلى عالم الإلهيات مُبتغى الفلسفة [48] كما أنّ الفلاسفة انطلقوا في دراستهم للأصوات من الرغبة في الوصول إلى حقائق عن العملية الصوتية في شكلها العام كما سعوا في دراستهم للأصوات إلى تقديم بناء معرفي صوتي قائم على رصد الجانب الفيزيائي للعملية الصوتية فضلا عن استثمار الوعي الطبّي الذي فرضته المعرفة الموسوعية على علمائها كما أنّ مُحاولة الإجابة عن عدد من الأسئلة التي طرحها الفلاسفة من نحو تساؤلهم عن طبيعة العملية الصوتية ؟ وما هي الكيفية التي تحدث بها ؟ وكيف لها أن تنتقل من مصدرها إلى متلقيها ؟[49] من هنا كانت الإجابات عن هذه الأسئلة المدخل الذي فتح الباب على هذا العلم، وبدأ الفلاسفة بدراسته ومن هنا أخذت الدراسة الصوتية تنمو وتتطور عندهم إذ أخذ متأخّرهم عن متقدّمهم أوّليات ومصطلحات هذا العلم، وأضاف إليه ما استجدّ عنده من مادة صوتية

لقد استفاد الفلاسفة من الفكر الفلسفي اليوناني والنتائج التي توصّل إليها النحاة واللغويون والقرّاء في مجال الصوتيات العربية فكثيرا ما كانوا يستشهدون بآرائهم يظهر هذا في مؤلفات بعضهم نحو قول إخوان الصفا *(القرن الرابع الهجري) : " والأصل في هذه الكلمة موضوعها في اللغة العربية على ما أجمع عليه النحويون ." [50]والفـارابي في كتابه الموسيقى الكبير لا يخلو من عبارة (

يسميه العرب) يقول : " وكل حرف متحرك أُتبع بحرف ساكن، فإنّ العرب يُسمّونه السبب الخفيف وكل حرف متحرك أتبع بحرف متحرك فإنهم يُسمونه السبب الثقيل ." [51]

كما لم يخلُ كتابا الرازي *(ت 606 ه) ـ التفسير الكبير ونهاية الإيجاز من ذكر علماء اللغة والنحو . يقول في الأول: " وفي جواز إمالته قولان للنحويين أحدهما:أنه يجوز ولعله قول سيبويه."[52] يُوضّح في الثاني عدد مخارج الأصوات عند النحاة يقول: " ذكر علي بن عيسى الرماني عن النحاة أنّ مخارج الحروف ستة عشر " [53] ويبقى ابن سينا الوحيد الذي لم يذكر في رسالته " أسباب حدوث الحروف " أيّ لغوي وبالتالي، نستطيع أن نقول إنّ المصطلحات الصوتية عند الفلاسفة المسلمين كانت خصبة الأمر الذي لم يتوفر للأولين كونها مرّت بمعيّة الفلاسفة بثلاث مراحل هي : **الاطّلاع أوّلا والانتفاع ثانيا والإبداع ثالثا** .

فكانت مصطلحاتهم الصّوتية غاية في الدقة ويُمكن أن نستدلّ على هوية المصطلحات الصوتية عند الفلاسفة المسلمين من خلال المصنفات التي تركوها فمثلا فيلسوف العرب الكندي له رسالة في الصوتيات عنوانها " رسالة في استخراج المعمّى " تكلّم فيها عن تردد أصوات العربية ودورانها في الكلام معتمدا على إحصاء صنعه بنفسه وذكر قانونا لغويا عامّا يسري على كلّ اللغات وهو كونُ المصوتات أكثر الحروف تردّدا .[54] له رسالة أخرى لها علاقة بالدرس الصوتي ومصطلحاته هي رسالة (اللثغة) تحدث فيها عن مصطلحات أعضاء النطق عند الإنسان، وعن صلة النطق بالحرف وعرّف اللثغة ووصف أصوات العربية، وعرض للأصوات التي تُصيبها اللثغة، وأشار إلى عيوب النطق مع محاولةٍ لمعالجة الألكن والأخنّ ويختم رسالته بذكره للوجوه الثلاثة للثغة . [55]و كشف في رسالته (أجزاء خبرية في الموسيقى) عن العلاقة بين الوزن الشعري والإيقاع النغمي .[56]

وحمل إلينا القرن الخامس الهجري رسالة عظيمة في الأصوات اللغوية يقول أحد المحدثين : "وحديثُ ابن سينا في هذه الرسالة أشبه بحديث علماء وظائف الأعضاء، فلا نكادُ نلمحُ فيها تأثّره كغيره بكتاب سيبويه، فله مصطلحاته وله وصفه الأصيل لكلّ صوت، ممّا جعله محلّ إعجاب وتقدير من بعض اللغويين المحدثين . " [57]

ورغم أنّ للفلاسفة المسلمين مرجعيّة ثقافية يونانية إلاّ أنّهم أعطوها أبعادا نظرية جديدة يقول (كمال بشر) : " إنّ دراسة العرب لأصوات لغتهم، إنّما هي دراسة أصيلة ليست منقولة في منهجها أو طريقة التفكير فيها عن غيرهم من الأمم والقول بأنها ترجع إلى أعمال الهنود أو اليونان في دراستهم الصوتية قول تعوزه الأدلة العلمية، التي تستطيع أن تُؤكّد هذا الزعم وأن تُنفيه على أنّ النظر الدقيق في جُملة ما طلع علينا به هؤلاء علماء العربية في مجال الأصوات اللغوية يحملنا على الجزم بأنّ هؤلاء العلماء كانوا يصدرون عن عقليتهم الخاصة وثقافتهم العربية . " [58]

فالفارابي مثلا يُعدّ واحدا ممّن اعتنوا بالدراسة الصوتية ومصطلحاتها إذ انطوى كتابه (الموسيقى الكبير) على عدد كبير من المصطلحات الصوتية فهو يتجاوز مفهوم أرسطو للمقطع فالمقاطع لا معنى لها وهي مفردة في اللغة اليونانية إلاّ أنّه لاحظ في العربية بعض المقاطع التي تبقى دالة على معنى وإن كان يختلف عن المعنى الذي تُعطيه وهي متوالية [59] يقول " أمّا المقطع الواحد من مقاطع الاسم فليس بدال، لكنه حينئذ صوت فقط فإنّه متى أخذ شيء منه جزءا لاسم مفرد لم يكن دالاّ على جزء المعنى الذي يلي الاسم على جملته لكنّه يكون حينئذ كحرف واحد . فلذلك جعله صوتا فقط و ينبغي أن يُؤخذ هذا على أنّه جزء بالإضافة إلى اسم ما أشار إليه فإنّ كثيرا من أجزاء الاسم ربّما كان اسما مفردا، لم يُقصد به حيث أخذ جزءا للاسم المفرد أن يكون جزءا له على أنّه قد كان اسما دالاّ مثل قولنا : ـ أبكم ـ في العربية فإنّ قولنا : أَبْ وقولنا كَمْ كل واحد منهما دال على انفراده، لا من حيث هو جزء للاسم، ولكن يقال في أمثال هذه إنّ أجزاءها دالة بالعرض."[60]

وإن كان أرسطو قسّم الأصوات إلى صامتة ومصوّتة فالفارابي ومن بعده ابن سينا قسّموها إلى ثلاث مجموعات: الصّامتات التي لها نصف صوت والمصوّتات وهذه الأخيرة تنقسم إلى أصوات ممدودة وأصوات مقصورة والمقصورة هي الحركات وحروف العلّة الألف والواو والياء والممدودة تسمّى أيضا المدّات ومن المحتمل أن تكون الحركات الطويلة [61]

فاطّلاعُ الفلاسفة المسلمين على ثقافة النحاة واللغويين لم يمنعهم من الإبداع . هذا الأخير الذي يعتبره العامة الاختراع الجديد لا عن مادة في حين يعتبره الحكماء إدامة تأييس ما هو بذاته [62] أي

إنّ الإبداع عند الفلاسفة لم يأت اعتباطا وإنّما نتج من المعجم العلمي الذي امتلكوه فهم اطّلعوا وانتفعوا من ثقافة الفئتين ـ يونان ونحاة لغويين عرب ـ ممّا كان له الأثـر في إبداع مصطلحات صوتية خاصّة بهم تتماشى مع طبيعة تفكيرهم وعملهم واتّجاهاتهم وقد اختلفت مصطلحاتهم الصوتية عن مصطلحات النحاة واللغويين لأسباب ذكرناها من قبل .

وقد سار الفلاسفة المسلمون في دراستهم للمصطلحات الصوتية على خطّ منهجيّ واحد وهو أمر يدعونا إلى الاعتزاز بالجهد الذي بذله هؤلاء في دراستهم للجانب الصّوتي، وعلى الرغم من أنّ نظرة الفلاسفة لم تتجاوز الجزئية، ولم تظهر في شكل نظرية صوتية متكاملة إذ فرضت عليهم طبيعة الدراسة أن تكون المادة عندهم منثورة في بُطون مؤلفاتهم ومع أنّ الدراسة عندهم تفاوتت بين عالمٍ وآخر إلاّ أنّ منهجيتهم تكادُ تكون منهجية شاملة تسري على جميع ظواهر علم الأصوات .[63]

إنّ الحُكم على منهج الدراسة الصوتية عند الفلاسفة المسلمين سيؤكد على الجانب الطبيعي (الفيزيائي) لكونه من أبرز المواضع التي حاولت هذه المدرسة دراستها والوقوف عليها وبالتالي لم يبق مجال للشك أنّ المصطلحات التي استخدمها الفلاسفة أغلبها مستقاة من الطبيعة ولا علاقة لها بمصادر النحاة واللغويين حيث اعتمد الفلاسفة في دراستهم على مصطلحات صوتية مختلفة تفرّدت بها عن غيرها من المدارس مثل التعبير عن أعضاء النطق بآلات التصويت الإنساني وبآلة التنفس، والقرع والقلع، والحدة والثقل وغيرها من المصطلحات إذ امتازت هذه المدرسة بظهور عدد كبير منها ـ أي المصطلحات ـ تداولها علماؤها وحاولوا بيان مفاهيمها . وهو الأمر الذي يدل على وُجود منظومة اصطلاحية خاصّة بالفلاسفة المسلمين .

لقد شهدت المصطلحات الصوتية تطورا ملحوظا على يد ابن سينا الذي استعان بمعارف كثيرة وجال في علوم عديدة لصياغة مصطلحه فلقد تنوعت دراسته الصوتية لتشمل الحديث عن علم الأصوات الطبيعي ابتداء من طبيعة الصوت وحُدوثه وانتقاله وُصولا إلى العملية السمعية فضلا عن دراسته التفصيلية لعلم الأصوات النطقي والوُقوف على مصطلحات أعضاء النطـق وتفصيلاتها وحديثه عن الحروف العربية، وكيفية حُدوثها وبيان خصائصها، ولم يكتف ابن سينا بوضع المصطلحات فقط وإنما اهتمّ كذلك بالدقة الدلالية التي تحملها المصطلحـات ومن هنا نُلفيه يختار

المصطلح المناسب للمفهوم العلمي حتى يأتي جامعا مانعا أي كان ذا قدرة على تحديد الدلالة تحديدا كاملا على مستوى اللفظ أو القضية اللغوية برُمّتها ساعده في هذا خبرته بتلك العلوم التي بحث فيها في لُغاتٍ مختلفة ممّا أضاف إلى قوة استيعابه قوة أخرى ميّزته في تأليفه وعطائه .

والظّاهر أنّ سعيَ الفلاسفة المسلمين وراء الدقة العلمية ومُحاولتهم إيجاد التعبيرات المناسبة هما سببا اهتمامهم بالمصطلح الصوتي الذي كان مُتداولا في عصرهم مثل : مصطلحي الحدة والثقل فالفارابي يعدّ رائد نظرية الحدة والثقل في الأصوات وما يتعلّقُ بها من درجة الصوت وشدّته قال الفارابي عن السبب الكلّي العام فيهما : "و أمّا حدّة الصوت وثقله فإنما يكون بالجملة متى كان الهواء النابي شديد الاجتماع، أو كان في الحال الدّونِ (الأقلّ) من الاجتماع، فإنه إن كان شديد الاجتماع كان الصّوت أحدّ، ومتى كان أقلّ اجتماعا وتراصّا كان الصوت أثقل . وجميعُ ما يفعلُ الاجتماعَ الأشدّ في الهواء هو السبب في أن يفعلَ الصوت الأحدّ، وما يفعلُ الاجتماعَ الدونَ فهو السبب في أن يفعَلَ الصّوتَ الأثقلَ ." [64]

كما يُعتبرُ ابن سينا أوّل من وظّف مصطلحي الرطوبة واليبوسة في شرحه لأسباب حدوث الحروف إلى غير ذلك من المصطلحات التي قام الفلاسفة بتوليدها فلهم القدرة على توليد مصطلحات خاصّة بهم مثل ابن سينا الذي استعمل مصطلح : السبب القريب والسبب البعيد، والسبب الأكثري والسبب الكلّي، فمعظم ألفاظه مصطلحات تدلّ على تمكّنه من مسائل وفنون العلم الذي يتناوله ،كما ساعدتهم ملكتهم اللغوية في السيطرة على مصطلحات كلّ علم بل إبداع مصطلحات صوتية دقيقة يتناسبُ فيها الاسم مع المسمّى والمصطلح مع ما يُقابله من المصطلحات الأخرى في النسق المعرفي لمجال بعينه فقد استخدم ابن سينا كلمة (هيئة) وجمعها (هيئات) بمعنى شكل Forme أو تكوين مُعيّن Configuration وهذه الكلمة يُمكن اعتبرها ترجمة دقيقة ومُعبّرة عن كلمة Configuration التي يستخدمها علماء الأصوات الغربيون المحدثون في التّعبير عن الشّكل الذي يتّخذه الممرّ الصّوتيّ لتكوين إصدار الصّوت المعيّن .[65]فيقـول في تعريف الصّوت (الحرف) :"و الحرف هيئة للصّوت عارضة له يتميّز بها عن صوت آخر مثله في الحدّة والثّقل تميّزا في

المسموع." [66] و يصف حدوث الصّوت بقوله : "وأمّا حال المُتموّج من جهة الهيئات التي يستفيدها من المخـارج والمحابس في مسلكه فيفعل الحرف" [67]

وإذا تأمّلنا الجملتين السّابقتين جملة تعريفه للصّوت، وجملة وصفه حدوث الصّوت نجد أنّه استخدم ألفاظا تُعَدُّ كل واحدة منها مصطلحا له مفهومه العلميّ الخاص، وله مدلوله الوصفيّ الدّقيق.[68]

وهناك عدّة عوامل ساعدت الفلاسفة المسلمين على أن يُحيطُوا المصطلح العلمي عامّة والصوتي على وجه الخصوص العناية والدّقّة منها :

1 ـ تمثّلهم وفهمهم للفكر اليوناني.

2 ـ اتّساع دائرة العلوم وتعدّد الآراء والنّظريات فكان عليهم أن يضعوا الحدود الدقيقة كي تتميّز بها الأشياء ويُؤمنَ اللّبس .

ثالثا : أصالة المصطلح الصّوتي من أصالة الفكر العربي الفلسفي

إنّ الدرس اللغوي العربي واجه حملةً من التّشكيك في نقائه من التأثر بغيره من دراسات الأمم الأخرى حيث توجّهت مزاعمُ التأثّر إلى الميادين الدراسية الثلاثة (علم الأصوات والعمل المعجمي والنحو) .[69]

نقول إنّ الصوت اللغوي في حياة التراث العربي ليس جديدا فالذي يُثبته الواقع التاريخي والبحث اللغوي أنّ الخليل هو أوّل من وضع الصوت اللغوي موضع التطبيق الفني في دراسته التي انتظمها كتابه (العين) وبخاصّة مُقدّمته التي تنمُّ عن حسٍّ لغويّ دقيق . فلقد أحسّ الخليل بكثير من جوانب المشكلة الصّوتية لذلك يُعدُّ الأوّل الذي جعلَ الصوت اللغوي أساس اللغة المعجمي فكان بذلك الرّائد والمُؤسّسَ ولا يُمكنُ في منظورنا أن نفصل سيبويه عن مدرسة الخليل في اللغة والأصوات فهو الممثّلُ الحقيقي لها فيما نُقلَ لنا من علم الخليل في الكتـاب وقد ورث عنه فيما ورث وصفا دقيقا لأصوات العربية في مخارجها وصفاتها .

وتبقى أفكار الخليل ونظرياته سواء ما جاء في العين أو ما نُقلَ عن سيبويه نبراسًا وهديًا لعلماء اللغة وما قدّمه ابن جني أيضا يُعدُّ تأصيلا صوتيا لكثير من الملامح والخصائص المكتشفة في ضوء تقدّمِ العلم الفيزيولوجي الحديث . ونحن الآن نتناول أصالة المصطلح الصوتي في التراث الفلسفي حيث كثيرا ما يحصُلُ بين الباحثين خلافٌ حول أصالة المصطلح الصوتي عند الفلاسفة المسلمين ولعلّ ما يُؤكّدُ هذا الزعم استفادة هذه الأخيرة من معارف من قبلهم ـ النحاة واللغويون العرب واليونان ـ ولكنّهم لم ينسوا هويّتهم الأصيلة التي صَبغُوا بها مصطلحاتهم الصوتية فعندما نُعالجُ الجانبَ الصوتي في دراستهم نُلفي مصطلحات صوتية لا علاقة لها بالفكر اليوناني حيث أكّد بعضُ الدارسين الغربيين أنّ المصطلحات الصوتية التي أُثرتْ عن اللغويين اليونان كانت دون المصطلحات الصوتية العربية، يقول روبنز (Roubines) : " وفي تاريخ علم الصوتيات فإنّ مؤلفات علماء اليونان والرومان ليست بذات أهمية أساسية فقد عبّروا بشكل خاص عن تصنيفاتهم، ووصفهم بمصطلحات أكوستيكية انطباعية لم يكن لديهم علم مصطلح فني مناسب لها بدلا من التعبير بمصطلحات نُطقية مثلما فعلَ العلماء الهنود القدماء، والعلماء العرب . " [70]

معنى هذا أنّ المصطلحات الصوتية التي وضعها الفلاسفة العرب كانت أكثر دقّة وارتباطا بطبيعة الأصوات ونُطقها أمّا الصوتيات اليونانية فكانت وصفا للأبجدية اليونانية حيث قُدّمَ الدرس الصوتي فيها على أساس وحدة مركبة من الكتابة والنطق [71] كما يُلاحظ على الآراء الصوتية لليونان أنّها تقومُ في جُملتها على مُلاحظة الآثار السمعية التي تتركها الأصوات في الأذن[72] وهي بهذا تختلف عن الآراء الصوتيةلفلاسفةالعرب الذين أدركواالأسس الفيسيولوجية في تكوين الأصوات المختلفة.

كما أنّ المصطلحات الصوتية التي ساقها الفلاسفة المسلمون تجاوزت في عُمقها ودقّتها ما توصّل إليه النحاة واللغويون ممّن عاصروهم فمعالجة الفلاسفة للصوت تختلف عن النحاة إذ هي تنزعُ نحو فيزيائية الصوت أو ما أطلق عليه بعضُ الباحثين اسم علم الصوتيات الموجي السمعي Acoustique phonétique .

و لا غرو فقد عرض فلاسفتنا لمصدر الصوت وكيفية انتقاله في الهواءوالمميزات الخاصة التي يتّصفُ بها وكيفية وُصوله إلى الأذن وإدراكه والتمييز بين الأصوات اللغوية وغير اللغوية ووضع المعايير السمعية لتقسيم الأصوات اللغوية والنغمة الصوتية وشدة الصوت.

وبالتالي يجب ألاّ يعزب عنّا حين نجد تشابها في الدرس بين أمة وأخرى أنّ ذلك لا يعني بالضرورة وُجود تأثرٍ مُعيّن بين هاتين الأمّتين كان للسابقة منهما أثر في اللاحقة لأنه قد تتوفر لدى كثير الأمم الظروف التي تستدعي قيام دراسة من الدراسات أو وضع تأليف من التآليف كما أنّ الإبداع والابتكار ليس وقفا على عقل دون آخر، أو شعب دون شعبٍ فقد تنشأ في أكثر من بقعة من بقاع الأرض دراسات يهيأ لها أن تنمو وتنضج بعيدة عن التأثر بمثيلاتها في البقاع الأخرى. [73] وخيرُ مثال على هذا ما أشرنا إليه عند كلامنا عن مصادر المصطلحات الصوتية عند الفلاسفة المسلمين إذ أنتجوا مُصطلحاتهم الخاصة التي تتماشى وطبيعة تفكيرهم وهذا يدفعنا للقول إنّهم كانوا يتمتّعون حتما بقدرة على بناء أفكارهم، ويجهدون في تركيب وعيهم وبناء تاريخيتهم وفضاءاتهم الثقافية فهم وعوا المنطق الذي يؤسس للمصطلحات مضمار الحركة، وأتاحوا لها فضاء التشكل والإبداع والتكاثر والنمو بما يُوازي تشكل العلم ونموه .

الخاتمة :

ـ ليس من السّهل ونحنُ نبحثُ قضيّةَ الإبداع والاتّباع أن نصلَ إلى نتائجَ قطعيّة حاسمة ؛ لأنّها مُشكلةٌ من المشكلات التي يصعُبُ عِلاجها وخُصوصًا إذا كانت تتناولُ موضوعا مضى عليه زمنٌ طويل، وربما كانت قضية التأثّر الحديث بالمصطلح الصّوتي العربي الأصيل أسهلَ تناوُلاً من قضيّةِ التأثير العربي القديم الأصيل على المصطلح الصّوتي عند الفلاسفة المسلمين وأقوى أدلّةً ولكن هذا لا يمنع من القول إنّ العدلَ والإنصافَ يَقتضيان أن نُقرّرَ أنّ الفلاسفةَ المسلمين قد بذلوا جُهودًا جبّارة في خدمة الدّرس الصّوتي ومصطلحاته ونظروا في كل جوانبه نظرات عميقة شاملة، ولم يفتهم في واقع الأمر شيء .

ـ إنّ المصطلحات الصوتية عند الفلاسفة المسلمين خصبة الأمر الذي لم يتوفر للأولين من النحاة واللغويين العرب كونها مرتّ بمعيتهم بثلاث مراحل : الاطّلاع ومن ثمّ الانتفاع فالإبداع .

ـ إنّ إبداع الفلاسفة المسلمين للمصطلحات الصّوتية لم يأت اعتباطا وإنما نتج من المعجم العلمي الذي امتلكوه مما كان له الأثر في إبداع مصطلحات صوتية خاصة بهم تتماشى مع طبيعة تفكيرهم وعملهم واتجاهاتهم .

ـ إنّ للفلاسفة المسلمين منظومة اصطلاحية صوتية خاصة بهم انبثقت من منهجيتهم في دراسة الأصوات .

ـ رغم استفادة الفلاسفة المسلمين ممن سبقهم من النحاة واللغويين العرب والأعاجم إلاّ أنهم لم ينسوا هويّتهم الأصيلة التي صبغوا بها مصطلحاتهم الصوتية .

الهوامش :

1 ـ ينظر : عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات، الدار العربية للكتاب، دت، دط، ص 11 .

2 ـ المصدر نفسه والصفحة نفسها .

3 ـ ينظر: عادل إبراهيم عبد الله أبو شعر، المصطلحات الصوتية في التراث اللغوي عند العرب ـ دراسة تاريخية تأصيلية من القرن الأول إلى القرن السادس الهجري ـ رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه ،جامعة أم القرى السعودي، 1424هـ، 1425هـ، ص 13 .

* هو أكبر فلاسفة المسلمين وكان يُعرف بالمعلم الثاني لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلم لأول) كان يُحسن اليونانية، وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره . ينظر : خير الدين الزركلي، الأعلام ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، مايو 2002 م، ط 15 7 / 20 .

4 ـ أبو نصر الفارابي، حققه وقدم له وعلق عليه، محسن مهدي ،كتاب الحروف ، دار المشرق، بيروت، لبنان، 1990 م، ط 2، ص 134 .

5 ـ المهدي بوروبة، المصطلحات الصوتية عند النحاة واللغويين العرب ـ رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية، حلب 1409هـ، 1989 م، ص 117 .

6 ـ إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية : مكتبة الأنجلو المصرية ،1971 م، ط 4، ص 5 .

7 ـ محمد حسين آل ياسين، الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث : منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1400ه

1980 م، ط 1، ص 29 .

8 ـ ينظر : المهدي بوروبة، المصطلحات الصوتية عند النحاة واللغويين العرب، ص 1 .

9 ـ أبي القاسم الزجاجي، تحقيق : مازن المبارك، الإيضاح في علل النحو: دار النفائس، بيروت، لبنان، 1399ه، 1979 م، ط 3، ص 66

* إنّ البوادر الأولى للحن كانت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد رُوي أنّ النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يلحنُ في كلامه فقال" أرشدوا أخاكم فقد ضلّ " . ينظر : أبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق : عبد الحميد هنداوي، الخصائص ، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان 1429 ه، 2008 م، ط 3 1 / 395 ـ 396 .

10 ـ الإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، أشرف عليه وقدم له : علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد النهاية في غريب الحديث والأثر، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، 1421ه، ط 1، ص 10 .

* هو الشيخ ابن إبراهيم بن سيدي أحمد بن حامي، كان إمام مدينة شنقيط ومفتيها، عُرف بورعه في الدين، له تآليف عدة منها : شرح على سلم الأخصري في المنطق، تأليف في الجيم، مكتوب في تسهيل الهمز . ينظر : ابن حامي، تحقيق : محمد عبد الله بن عمر، ملاحن القراء، ، دار الفكر دت، دط ، ص 40.

11 ـ ابن حامي، ملاحن القراء : ص 83 ـ 84 .

12 ـ ينظر : سعيد الأفغاني، من تاريخ النحو، دار الفكر، بيروت، لبنان، دت، دط، ص 8 .

13 ـ الخليل بن أحمد الفراهيدي، ترتيب وتحقيق : عبد الحميد هنداوي، كتاب العين : منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان 1424ه، 2003 م، ط 1، 1 / 43 .

14 ـF.De.Saussure Cours de linguistique générale , ed payot , paris , p110

15 ـ ينظر : مهدي المخزومي، الفراهيدي عبقري من البصرة ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1989 م، ط 2، ص 35 .

16 ـ أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ، كتاب سيبويه، دار الجيل، بيروت، دت، ط 1، 4 / 436 .

17 ـ ينظر على سبيل المثال : أبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق : محمد عبد الخالق عظيمة، المقتضب :، القاهرة، 1415ه، 1994 م

1 /332 .

18 ـ ينظر : أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، عالم الكتب، القاهرة، 1988 م، ط 6، ص 93 ـ 101 .

19 ـ أبي الفتح عثمان بن الجني، دراسة وتحقيق : حسن هنداوي، سر صناعة الإعراب : دار القلم للطباعة والنشر، دمشق، 1405ه

1985 م، ط 1 1 / 9 .

20 ـ المهدي بوروبة، المصطلحات الصوتية عند النحاة واللغويين العرب، ص 11 .

21 ـ عبد الفتاح المصري، مجلة التراث العربي من مقال بعنوان : الصوتيات عند ابن جني في ضوء الدراسات اللغوية العربية والمعاصرة، العدد 15 رجب 1404ه، أبريل والعدد 16 شوال 1404 ه يوليو1984 م، دمشق، ص 233 .

22 ـ عادل إبراهيم عبد الله أبو شعر، المصطلحات الصوتية في التراث اللغوي عند العرب ـ دراسة تاريخية تأصيلية من القرن الأول إلى القرن السادس الهجري ـ ص 87 .

23 ـ ينظر : جعفر آل ياسين، الفارابي في حدوده ورسومه، عالم الكتب ،بيروت ، 1405ه، 1985 م، ط 1، ص 14 .

24 ـ عائشة عبد الرحمن، لغتنا والحياة، القاهرة، 1971 م، دط، ص 45 .

25 ـ عبد الحليم منتصر، أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، دت، دط، ص 184.

26 ـ محمد عبد الرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية : عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، 1420ه ، 2000م

ط 1، 290/1 .

27 ـ الإمام شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحرّاني الدمشقي الحنبلي، كتاب الرد على المنطقيين، تولّى إعادة طبعه ونشره : إدارة ترجمان السنّة، مكتبة الحرمين، الرياض، 1397ه، 1977 م، ط 3 ، ص 49 .

28 ـ محمد عبد الرحمن مرحبا، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب : دار الفيحاء، بيروت، 1978م، دط، ص 189.

29 ـ أمينة طيبي، الدرس الصوتي عند الفلاسفة المسلمين : رسالة قدمت لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سيدي بلعباس 1425ه 2005م، ص 10 .

30 ـ محمد عبد الرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية 1/ 319 وينظر : حلمي خليل، المولد ـ دراسة في نمو وتطور اللغة العربية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، 1978م، دط، ص 501.

31 ـ عبده الحلو، الوافي في تاريخ الفلسفة العربية، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، 1995 م، ط 1، ص 102 ـ 103 .

32 ـ الأخضر جمعي، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين : ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999 م، دط، ص 23 .

33 ـ ينظر : حسن بشير صالح، علاقة المنطق باللغة عند الفلاسفة المسلمين، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، 2003م، ط 1 ،

ص 78 ـ 80 .

34 ـ دي بور، نقله إلى العربية وعلق عليه : محمد عبد الهادي أبو ريدة، تاريخ الفلسفة في الإسلام : مكتبة النهضة المصرية، دت، دط، ص 25 35 ـ الكندي، فلسفته، ص 5 .

36 ـ محمد عبد الرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية 1 / 296 .

* تقعُ قرب الكوفة كانت تُدرّس فيها الثقافات اليونانية والفارسية والهندية، وكانت الكتابات اليونانية تترجم إلى اللغات السريانية . ينظر : تأليف : كيس قيرستينغ، ترجمة : محمود علي كاكري عناصر يونانية في الفكر اللغوي العربي ، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن ،ط 2، 1424 ه، 2003م ص 38 ـ 40 .

37 ـ

38 ـ محمد عبد الرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية 1 / 297 .

39 ـ نفسه : 1 / 315 .

40 ـ جيرار جهامي، موسوعة مصطلحات ابن رشد الفيلسوف ، مكتبة لبنان، 2000م، ط1، ص 771.

41 ـ محمد عبد الرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية 1 / 320 .

42 ـ شحاده الخوري، قدم له : عبد الكريم اليافي، دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب : دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق 1989م، ط1، ص 27.

43 ـ غواشون، ترجمة : رمضان لاوند، فلسفة ابن سينا أثرها في أوربا خلال القرون الوسطى : بيروت، 1950 م، دط، ص 70 وينظر : عبد الأمير الأعسم، المصطلح الفلسفي، ص 59 ـ 60 .

44 ـ ابن رشد، تلخيص الخطابة : ص 530 .

45 ـ ينظر : الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر، تحقيق : أمير علي مهنا وعلي حسن فاعور، الملل والنحل، دار المعرفة، بيروت لبنان، 1997 م، دط، 2 / 492 .

46 ـ أبي نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي، تحقيق وشرح : غطاس عبد الملك خشبة، مراجعة وتصدير : محمود أحمد الحفني، كتاب الموسيقى الكبير : دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة، دت، دط، 2 / 211، 212 .

* ـ هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي أبو علي من أئمة المعتزلة، ورئيس علماء الكلام في عصره . وإليه نسبة الطائفة الجبائية . نسبته إلى جبى من قرى البصرة . له تفسير حافل مطول ردّ عليه الأشعري . ينظر : خير الدين الزركلي، الأعلام 6 / 256 .

47 ـ أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا، شرح : نصر الدين الطوسي، وتحقيق : سليمان دنيا، الإشارات والتنبيهات، دار المعارف، القاهرة، 1983 م ط 3، 1 / 94 وينظر : ابن أبي أصيبعة، نقله وصححه : امرؤ القيس بن الطحان، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، المطبعة الوهبية، 1299هـ، 1882 م، 2 / 7 وينظر : عباس محمود العقاد، الشيخ الرئيس ابن سينا، دار المعارف، دت، ط 3، ص 20 .

48 ـ محمد فتح الله الصغير، الخصائص النطقية والفيزيائية للصوامت الرنينية في العربية، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العربي، عمان، 1428 هـ، 2008 م ،ط 1، ص 20 .

49 ـ علاء جبر محمد، المدارس الصوتية عند العرب ـ النشأة والتطور دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1427هـ، 2006 م، ط1، ص 178 .

* هم جماعة من الفلاسفة المسلمين، دوّنوا اثنتين وخمسين رسالة في فنون العلم وغرائب الحكم، وطرائف الآداب، وحقائق المعاني عن كلام الخلصاء الصوفية . وهي مقسومة على أربعة أقسام فمنها : رياضية تعليمية، ومنها جسمانية طبيعية، ومنها نفسانية عقلية، ومنها ناموسية إلهية ينظر : رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، تقديم : عليوش عبود، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية، الجزائر، 1992 م دط
1 / 12 ـ 13 وينظر : عبد المنعم الحفني، موسوعة الفلسفة والفلاسفة، مكتبة مدبولي، دت، ط 2، 1 / 114 .

50 ـ رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء 3/ 271 .

51 ـ الفارابي، كتاب الموسيقى الكبير : 2 / 1076 .

* فخر الدين الرازي : الإمام المفسر، أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل . كان يُحسنُ الفارسية . وله شعر بالعربية والفارسية، وكان واعظا بارعا باللغتين . ينظر : خير الدين الزركلي، الأعلام 6 / 313 .

52 ـ فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1401هـ، 1981 م، ط 1، 1 / 112 .

53 ـ فخر الدين محمد بن عمر الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : طبع بمطبعة الآداب ، مصر، القاهرة، 1317هـ، دط، ص 23 .

54 ـ ينظر: الكندي، رسالة في استخراج المعمّى : ضمن كتاب : علم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب، دراسة وتحقيق لرسائل الكندي وابن عدلان وابن الدريهم، محمد مراياتي، ويحيى مير علم، ومحمد حسان الطيان، تقديم : شاكر الفحام، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق 1407هـ ، 1987 م، 1/ 236 .

55 ـ ينظر : الكندي، تحقيق : محمد حسان الطيان، رسالة يعقوب الكندي في اللثغة ضمن منشورات مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، شوال 1405ه 1985 م ، ص 521 ـ 532 .

56 ـ ينظر : سليم الحلو، رسالة الكندي في أجزاء خبرية في الموسيقى ملحق بكتاب تاريخ الموسيقى الشرقية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان ، 1961 م، دط، ص 261 ـ 262 .

57 ـ رمضان عبد التواب، المدخل على علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1417ه، 1997 م، ط 3، ص 17 ـ 18 .

58 ـ كمال بشر، التفكير اللغوي بين القديم والحديث : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2005 م، دط، ص 381 382 وينظر : شرف الدين الراجحي، في علم اللغة العام ،دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1429ه، 2008 م، دط، ص 133 .

59 ـ أمينة طيبي، الدرس الصوتي عند الفلاسفة المسلمين : ص 16 .

60 ـ أمينة طيبي، الدرس الصوتي عند الفلاسفة المسلمين ص 16 نقلا عن : كتاب أرسطو طاليس في العبارة ص 49 .

61 ـ كيس قرستيغ، ترجمة وتعليق : داعي الدين محب، الفكر اللغوي بين اليونان والعرب : دار الهدى للنشر والتوزيع، دت، دط، ص 100 وينظر : أمينة طيبي، الدرس الصوتي عند الفلاسفة المسلمين ص 16 ـ 17 .

62 ـ الشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا، باهتمام : عبد الله تواني المبدأ والمعاد :، مؤسسة مطالعات إسلامية، طهران، 1363 ه ، ص 77

63 ـ علاء جبر محمد، المدارس الصوتية عند العرب ـ النشأة والتطور ـ ص 174 .

64 ـ الفارابي، كتاب الموسيقى الكبير 2 / 216 ـ 217 .

65 ـ ينظر : محمد صالح الضالع ، علم الأصوات عند ابن سينا : دار المعرفة الجامعية، ع ش موتير، الاسكندرية، دت، دط، ص 17، 18.

66 ـ الشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن سينا، تحقيق : محمد حسان الطيان ويحيى مير علم، مراجعة وتقديم : شاكر الفحام، أحمد راتب النفاخ، رسالة أسباب حدوث الحروف : مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1403 ه، 1983 م، ط 1، ص 60.

67 ـ الشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن سينا، تحقيق : محمد حسان الطيان ويحيى مير علم، مراجعة وتقديم : شاكر الفحام، أحمد راتب النفاخ، رسالة أسباب حدوث الحروف، ص 60 .

68 ـ محمد صالح الضالع، علم الأصوات عند ابن سينا : ص 18 .

69 ـ محمد حسين آل ياسين، الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث : ص 84 .

70 ـ روبنز، ترجمة : أحمد عوض، تاريخ علم اللغة في الغرب : عالم المعرفة، الكويت، دط، 1990 م، ص 56 .

71 ـ نفسه : ص 54 .

72 ـ محمود السعران، علم اللغة : مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دت، دط، ص 88.

73 ـ محمد حسين آل ياسين، الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث : ص 85 .